الواقع الحضارى العربى

فى البداية أعترف صراحة أننى لست رجل سياسة ولا أدعى مقدرتى على التحليل السياسى، ولكن لمّا كان موضوع دراسة المسرح السياسى فى الوطن العربى. لابدّ وأن تكون له خلفية حضارية انطلاقاً من أن المسرح السياسى إفراز حضارى فى فترة زمنية معينة، كان لزاماً علىّ أن أحاول أن أدرس الواقع الحضارى العربى فى فترة التناقضات، وهى الفترة الواقعة من نكسة يونيو ١٩٦٧ حتى أواخر السبعينات متناولاً دراسة الواقع الحضارى (بمكوناته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية) وعناصر أو محاور أساسية تتمثل فى أحداث هامة أثرت فى هذا الواقع الحضارى أو كانت إفرازاً لهذا الواقع، وأهم هذه المحاور هى: قضية فلسطين، ونكسة يونيو ١٩٦٧، وعبور أكتوبر. وقضية الحرية فى العالم العربى.

ولم تكن نكسة يونيو ١٩٦٧ وليدة لحظة بعينها بل كانت نتيجة لتراكمات عديدة على كل المستويات وعلى كل الجبهات العربية فلقد تصاعدت الأخطار فى الربع الأول من عام ١٩٦٧ ولا شك فى أن

هذا التصاعد على الجبهتين العربية والإسرائيلية كانت له مبرراته، لكنها على الجانب الإسرائيلي، كانت تستمدّ مناصرة مباشرة من موقف الولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت تواجه مرحلة هامة من مراحل تدهور نفوذها العربي في منطقة الشرق الأوسط. بالإضافة إلى أن عامل الوقت كان هو أحد الدوافع لتدبير العدوان وشن الحرب من جانب إسرائيل، خصوصاً بعد إغلاق مضايق تيران قبيل الخامس من يونيو ١٩٦٧، والذي كان له ردّ فعل كبير على المستويين العربي والإسرائيلي. فالملاحظ أن العرب قد ساعدوا من حيث يعلمون أو لا يعلمون على دفع المؤسسة العسكرية الإسرائيلية في الاندفاع نحو الحرب، إذ أن الحركة المسرحية الخاصة بإغلاق مضايق تيران كانت قد ألهبت حماس الرأي العام العربي إلى أبعد حدّ فاشتدّ التيار العاطفي الكاسح، بالإضافة إلى أن الدين كان يدعم هذا الموقف، وأخذ مشايخ المسلمين وبطاركة المسيحيين، ينددون بإسرائيل.

ويمكن القول باختصار: إن نكسة يونيو ١٩٦٧ كانت قد بدأت عام ١٩٤٨ وأسهمت فيها كل الحكومات البيروقراطية والديكتاتورية، ومن ثم أسهمت فيها أيضاً وبدرجات متفاوتة كل القيادات الجماهيرية المتسلّقة والتي تحولت إلى قوى يمينية ذيلية أحياناً، تتعقب الأحداث للاستفادة منها هذا: على الجوانب الإقليمية أو المحلية، أما على الجوانب الدولية العربية، فقد كانت العلاقات

العربية فى هذه الفترة فى حالة من التفسخ لم تعانها من قبل. فضلاً عما ذكرنا من أن الأوضاع الداخلية فى أىٍّ من الدول العربية لم تكن تسمح إطلاقاً بتصاعد الأخطار نحو الحرب مع إسرائيل والتعجيل بها، وعلى هذا فالنكسة قد جاءت وليدة مجموعة متشابكة من الظروف الموضوعية والذاتية الداخلية، والخارجية، بالإضافة إلى الأوضاع الطبقية التى سنتحدث عنها فى حينها. ولا يمكن إغفال الجانب السياسي والعسكرى، لذلك فإن أية محاولة لإرجاع النكسة إلى ظرف دون آخر، أو إلى سبب دون آخر، ربما يكون من شأنه أن يحجب الرؤية الشاملة للمسببات الحقيقية للنكسة.

ويمكن القول إن النكسة التى أودت بالعرب فى يونيو ١٩٦٧ قد لقنتنا درساً باهظ الثمن، لأن ما يدور فى الجبهة الداخلية العربية لا يمكن فصله عما تنتهى إليه الأمور فى الجبهة العسكرية، فالسلبيات والنواقص فى الجبهة الداخلية لها انعكاسات مباشرة على مصير المعركة ضدّ العدوان الخارجى، وعليه فهل تتحرر العقلية العربية من الطائفية والعشائرية التى أدّت بصورة أو بأخرى إلى نكسة يونيو التى لا نغالى إذا قلنا إنها من أقسى ما واجهناه فى تاريخ عملنا الثورى.

ونستطيع أن نردّ الصدمة التى أصابت الوجدان العربى من أثر نكسة يونيو ١٩٦٧، إلى اعتبارات عديدة لعل أهمها ما قامت به

«أجهزة الإعلام[1]» من دور هام فى هذا المجال متمثلاً فى التضخيم فى قوّة واستعداد الجيش العربى وقدرته على سحق إسرائيل فى فترة وجيزة مع تصويرها للقوة اليهودية على اعتبار أنها مجموعة من العصابات اليهودية المشتتة، والتى لا يجمعها سوى الدين اليهودى والفكر الصهيونى بكل ما يمثله من جوانب متطرفة وعدوانية لا تكوّن شعباً منسجماً ولا تجمعاً متكاملاً، وهى غير قادرة على الدخول مع العرب فى معركة فاصلة، ووصل هذا الاتجاه إلى أقصى مداه على يد بعض الكتّاب العرب المحافظين الذين أكد أحدهم استناداً إلى المنهج المعيب فى تفسير «الشخصية الإسرائيلية[2]»، على

---

(١) وعلى العكس نجحت أجهزة الإعلام الإسرائيلية نجاحاً ملحوظاً فى تأييد عدوانها على البلاد العربية عام ١٩٦٧ عن طريق حملة دعائية قوية فرضت على العالم وجهة النظر الإسرائيلية وذلك فى غياب تام لوجهة النظر العربية والتى زاد من تشويهها بعض التصريحات غير المسئولة لعدد من الزعماء والمسئولين العرب مما دفع إسرائيل لاستغلال هذه التصريحات فى جانبها لكسب الرأى العام العالمى وتصوير إسرائيل كحمل وديع تريد القوة العربية الضخمة أن تلقيه فى البحر، انظر السيد يس، الشخصية العربية (بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨١) ص ٩١.

(٢) طرح الدكتور حسن ظاظا، سمات الشخصية الإسرائيلية، وهى متمثلة فى التعصب العنصرى حول أسطورة خاصة بالأعراق والأنساب والتعصب الدينى حول شريعة اعتبرها اليهود خاصة بهم لأنهم شعب الله المختار، وحتمية الصراع وفناء اسم العالم أمام إسرائيل. انظر: الشخصية الإسرائيلية. عالم الفكر العدد الرابع، المجلد العاشر ص ٣٠.

ضوء تاريخ اليهود منذ أقدم العصور، إلى أن هؤلاء اليهوديحجمون عن لقائنا وجهاً لوجه وأن إسرائيل تستطيع أن تتحمل من الهوان ما لا يطيقه بشر ولا تدخل معنا فى صدام مباشر بالسلاح، وأن أسلحة اليهود مهما تعاظم شأنها، لا تكفى للقضاء على ما فى طبيعتهم من جبن أصيل، ويرد السيد يس، أسباب الصدمة العربية بعد نكسة يونيو إلى عاملين أساسيين حيث يقول:

«فى يقيننا أن جسامة الصدمة التى أصابت الوعى العربى تردّ إلى عاملين أساسيين أولهما: تضخم صورة الذات العربية نتيجة للأوهام التى زرعت فى أذهان الجماهير العربية عن القوة التى لا تقهر للقوات المسلحة العربية. وثانيهما: المحاولات الدعائية المنظمة التى أسهم فيها عدد من المثقفين العرب الذين يفتقرون إلى النظرة العلمية، والتى حاولت بدأب الإقلال من خطرالعدو الإسرائيلى والاستهانة بقدراته ورسم صورة مزيفة لحقيقة أوضاعه الاجتماعية والسياسية والعسكرية».

ولقد عشنا جميعًا الفترة التى أعقبت نكسة يونيو ١٩٦٧، حيث تبارى المفكرون العرب الذين ينتمون إلى اتجاهات سياسية (متباينة)[١] لتفسير الهزيمة، منهم من قال بأن سبب الهزيمة هو البعد

---

(١) إن نجاح إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧ وراءه تاريخ طويل من العمل الدائب وتضامن يهودى مدهش داخل البلاد وخارجها، ونجد عكس هذا فى البلاد =

عن الدين، ومنهم من قال إن العامل الحاسم فى الهزيمة يرجع إلى التطور التكنولوجى الإسرائيلى والتخلف العربى فى نفس المجال، ومنهم من وجدها فرصة سانحة للهجوم على الاشتراكية. غير أن أهم التفسيرات وأخطرها قاطبة هى تلك التى تتعلق بتشريح الشخصية المصرية بوجه خاص والعربية بوجه عام، كما يرى السيد يس حيث يقول:

«لقد ركزت هذه التفسيرات التى وجدت سندًا قويًّا لها فى واقعة الهزيمة الساحقة، على السلبيات (والفردية والمظهرية والفهلوية والافتقار إلى المبادأة والعجز عن العمل الجماعى)[1] ومن ناحية أخرى أغرقتنا التحليلات الاجتماعية للمجتمع العربى التى صورته لنا مجتمعًا تقليديًّا يقوم على اعتبارات القرابة أكثر من اعتبارات الإنجاز والكفاءة، مجتمعًا يتكون من مجموعة من الأميين الذين يعجزون بحكم وصفهم عن استيعاب العلم والتكنولوجيا. وبعبارة موجزة قدمت لنا صورة بالغة الكآبة للشخصية المصرية وفى نفس

= العربية حيث المعارك الجانبية، والعداءات المذهبية المزعومة، وتجار السياسة والأيديولوجيات المتباينة.

(١) يمكن القول إن هذه السلبيات ليست سمات ثابتة فى المجتمع العربى، وإنما هى تغلب على طبقة البورجوازية الصغيرة والبيروقراطية الجديدة من أفراد الطبقة الوسطى، ولا تنطبق بشكل شامل على مجتمع الفلاحين (فسمه التفاخر بالأصل والحسب وسمه الحزن والتغنى بالماضى كلها سمات بورجوازية).

الوقت رسمت لنا صراحة وضمناً صورة مسرفة فى المبالغة عن الشخصية الإسرائيلية العصرية (التكنولوجية)[1] المتقدمة».

ولقد تركزت هذه التيارات التى فسرت السبب فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتى اهتم بها بعض الباحثين من وجهة النظر العربية فى ثلاثة تيارات..

يعرضها السيد يس كما يلى:

١ - **التيار العلمانى الليبرالى:** ويرى أن سبب النكسة يتمثل فى الجمع بين الدين والدولة، ويدعو هذا التيار لتجاوز النكسة عن طريق فصل الدولة عن التنظيم الدينى فصلاً مطلقًا وتدريب العقل وتنظيمه بالإقبال على العلوم الوضعية والتجريبية، كما يدعو إلى أن يتم الإصلاح عن طريق الإصلاح التطورى لا عن طريق الثورة، وأن يعتمد على مبادرة القادة الذين يدفعون إلى الإصلاح دفعًا.

٢ - **التيار الإسلامى الدينى،** وينطلق هذا التيار أساسًا من التسليم بعظمة الإسلام كعقيدة وشريعة ويقرر أن سبب الهزيمة يكمن فى تخلى العرب عن دينهم، والانتصارات فى عرف هذا التيار ليست رهينة بالقوة المادية، وإنما هى نتيجة للأفضلية الروحية.

---

(١) تحاول القوى الاستعماريه و إسرائيلية إعاقة أى تقدم ثقافى علمى فى الوطن العربى، وآخر هذه المحاولات ضرب المفاعل الذرى العراقى.

٣ - **التيار الثورى:** ويمكن القول إن النغمة الرئيسية فى كل الكتابات التى تشكل التيار التقدمى الثورى فى تفسير أسباب الهزيمة، هى ضرورة القيام بثورة شاملة تؤدى إلى إجراء تغييرات جذرية فى جميع مجالات الحياة العربية.

إن هذه التيارات الثلاثة التى تنحصر فيها أسباب النكسة من وجهة نظر عربية ليست كافية تمامًا لحصر أسباب نكسة يونيو فثمة تساؤلات أخرى حول أسباب الهزيمة كلها متباينة أشدّ التباين ولا تبرز إلّا وجهة النظر الايديولوجية لأصحابها، لذلك سوف نغض النظر عن طرحها، ولكى تكتمل الصورة بشكل موضوعى، يجدر بنا أن ننظر إلى وجهة النظر الأخرى «المعادية»[1] التى طرحها الدكتور (يهو شفاط هركابى) حيث لخص تيارات خمسة لأسباب الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧، حيث يقول:

إن أهم التيارات التى طرحت لتفسير أسباب الهزيمة تتمثل فى تيارات خمسة هى:

١ - **التيار الإصلاحى:** ويؤكد أن الهزيمة جاءت نتيجة ضعف أساسية فى الإنسان وفى المجتمع وفى أنظمة الحكم العربية، وفى

---

(١) يردد الأدب الصهيونى الدعائى، الأساطير عن قدرة الفرد الإسرائيلى سواء فى الانتاج أو فى الحرب، فى العلم أو فى الفن. وفى مقابل ذلك يصور الفرد العربى ككائن جاهل مستكين متأخر أهوج، وغير قادر على الفعل.. كما يرى الدكتور سعد الدين إبراهيم.

العلاقات بين الدول العربية، وعلى ذلك يدعو أنصار هذا التيار إلى ضرورة إجراء تغييرات جذرية وعميقة على الصعيدين الاجتماعى والسياسى وينبغى العمل على خلق الإنسان العربى الجديد عن طريق إصلاح التعليم وتجديد الثقافة وإدخال النظم العصرية الحديثة، اعتمادًا على التطوير التكنولوجى، كل ذلك مع إضفاء الليبرالية على أنظمة الحكم.

٢ - **التيار الثورى**: هذا التيار مع اعترافه بوجود نقاط ضعف جذرية، إلّا أنه يحمل أنظمة الحكم المسئولية فى المقام الأول، وهو يدعو إلى الثورة الشاملة باعتبارها الحل الأساسى للمشكلة بما يتضمنه ذلك من ضرورة التخلى عن القيم التقليدية.

٣ - **التيار الإسلامى**: ويرى أنصاره أن المجتمع العربى قد ضعف نتيجة ابتعاده عن «الإسلام»[١] وأن حل المشكلة يتمثل فى

---

(١) لقد قال الرئيس الراحل عبد الناصر فى خطابه لدى افتتاح الدورة الثانية لمؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى يوم ٦٩/٣/٢٨ «لقد كان بين القوات المسلحة من قال بأنه لم تكن ثمة معركة بيننا وبين إسرائيل، وأنه ربما كان ماحدث فى خلال معركة ١٩٦٧ هو بإرادة الله لأن ننظر إلى مساوئنا ولنعمل على تقويمها ولنسير على الطريق المستقيم، وواضح وقتها أن الفئات الشعبية تناصر التيار الإسلامى».

العودة إلى الدين وذلك من شأنه أن يحقق الانتصار على إسرائيل.

٤ - التيار الحكومي: (وخاصة جمهورية مصر العربية) وهذا التيار يعترف بالضعف الداخلي ولكنه يركز على التقليل من قيمة الهزيمة ومن أهميتها، ويميل إلى إلقاء تبعة الهزيمة على عاتق ظروف عارضة، ويرى أنها نتيجة أخطاء يمكن التغلب عليها وإصلاحها، والحل عنده لا يتمثل في نظام الحكم كما تتطلب الاتجاهات السابقة ولكن «يمنح الثقة للقيادة السياسية»[١] ويدعو لتقوية نظام الحكم.

٥ - تيار «فتح» ومنظمة التحرير الفلسطينية: والفكرة الرئيسية التي يصدر عنها هذا التيار أن وجود إسرائيل هو سبب الضعف العربي كله، وما دامت إسرائيل قائمة فإن كل علاج للإصلاح الداخلي يقوم به العرب هو عبث، ولذلك ينبغي تعبئة كل الجهود لمحاربة إسرائيل وبعد الانتصار يمكن للعرب أن يفرغوا لبرامجهم الإصلاحية.

هذه هي بعض الآراء، التي فسّرت أسباب الهزيمة، سواء أكانت

---

(١) تحاول السلطة الحاكمة في بعض البلاد العربية بعد النكسة أن تقول إن هدف إسرائيل هو تغيير أنظمة الحكم في بلادهم، وأن من يطالب بالتغيير إنما يخدم أهداف إسرائيل.

عربية أم غير عربية، فى اتجاهات ثلاثة رئيسية هى، أسباب عسكرية: تتعلق بكل الأبعاد العسكرية فى المعركة، وأسباب سياسية: تتعلق بالافتقار إلى الوحدة القومية بين البلاد العربية، بالإضافة إلى الاعتماد غير المجدى على «القوى الكبرى»[1] يمينية كانت أم تقدمية، غربية أم شرقية، والاتجاه الثالث: يتمثل فى الأسباب الاجتماعية التى تتعلق بالأبعاد النفسية والاجتماعية والحضارية فى المجتمعات العربية التى أدّت إلى الهزيمة، ويؤكد هذه الاتجاهات تلك التساؤلات التى يطرحها كميل حوا، حيث يقول:

«من الذى هزم. هل هزمت أمة أم مجرد طبقة أو قائد؟ هل هزم شعب، أم هزمت نظرية وخط سياسى؟ هل هزم العرب أم هزم بعض العرب، وانتصر «عرب» آخرون؟ هل هزمت سلبيات العرب أم إيجابياتهم، وما الذى حدث تمامًا: هل إن بقعة الزيت اتسعت، أم أن السيف اقترب من القلب؟ هل خسرنا معركة أم خسرنا حربًا؟ هل خسرنا حربًا أم خسرنا ثورة؟»

والواضح أن هزيمة العرب فى يونيو ١٩٦٧، هى هزيمة على كل

---

(١) لقد انقسم العرب إلى قسمين، قسم يلقى اللوم على الذين اطمأنوا إلى التأييد العسكرى والسياسى للسوفييت وتحملهم المسئولية فيما حدث، ولولا هذا لقامت أمريكا بحل القضية منذ وقت طويل، ومارست ضغطها على إسرائيل، واحتلت المسألة الفلسطينية مكانًا ثانويا فى اهتمامات الزعماء العرب نتيجة لخلافاتهم حول أى معسكر يتبعون.

المستويات، فلقد هزم العرب، قبل يونيو، لقد هزموا أخلاقيا، قبل أن يهزموا عسكريا.. فمن الناحية السياسية، كانت الديكتاتورية سمة مميزة فى بعض أنظمة الحكم العربية، ثم زادت بعد العدوان الصهيونى فى ١٩٦٧، ولا سيما الدكتاتورية العسكرية، وازدادت الأزمات وازداد التناقض بين الماضى والحاضر واتخذ هذا التناقض شكلاً حادًا،

والواضح أن هزيمة العرب، فى يونيو ١٩٦٧، هى هزيمة على كل المستويات فلقد هزم العرب، قبل يونيو، لقد هزموا أخلاقيا، قبل أن يهزموا عسكريا..، فمن الناحية السياسية، كان الديكتاتورية سمة مميزة فى بعض أنظمة الحكم العربية، ثم زادت بعد العدوان الصهيونى فى ١٩٦٧ ولاسيما الدكتاتورية العسكرية، وازدادت الأزمات وازداد التناقض بين الماضى والحاضر واتخذ هذا التناقض شكلاً حادًا، لدرجة أنه لم يكن لدينا مجال فى ١٩٦٧، للتعلّل بما كان يتعلل به العرب فى الماضى من رجعية للفئات السياسية الحاكمة أو الافتقار إلى التسليح خصوصًا وأن نكسة يونيو، جاءت بعد حوالى تسعة عشر عامًا من هزيمة عام ١٩٤٨، وكانت هذه الفترة كافية جدا، للسماح للحكومات العربية، للاستعداد لمواجهة إسرائيل. لكن يبدو أن المواجهة، كانت مواجهة إعلامية ودعائية من جانب العرب مما أدى إلى النتيجة المعروفة فى يونيو ١٩٦٧. فلقد صرح الرئيس عبد الناصر، بأنه لا ترهبنا أمريكا وتهديداتها، فتيار الثورة

التحريرية العربية الجارف لا يمكن بحال أن توقفه أساليب التهديد والضغط والابتزاز الأمريكية، لا يمكن أن توقفه التحركات الأمريكية المريبة نحو البحر الأحمر، ولا التصريحات الحمقاء لقائد الأسطول السادس. لقد عاشت الأمة العربية، جوًّا من الكذب والخداع، فالصحف، ودور الاذاعة، ومعظم أجهزة الإعلام، كانت وظيفتها، هى الكذب وتضليل المواطن العربى، بالإضافة إلى أن العناصر الإعلامية كانت لا تمتلك الرصيد التاريخى علميا ونفسيا لأعمال وتحركات العدو والرد عليه بالمنطق العلمى المقنع، بل كانت تكرس كل طاقاتها كأبواق مديح أو ذمّ لهذا الشخص أو ذاك فى الوطن العربى، حتى باتت أجهزة تأليه للشخصية «الفردية» . أكثر من كونها أجهزة إعلام يجب أن تخدم وتوجه الجماهير الواسعة وتسهم فى زجّها بمعركة الشرف، ولكن أجهزة الإعلام استقطبت المعارك الداخلية وتجاهلت معركتنا مع الاستعمار والصهيونية. وقد عكست مؤتمرات القمة العربية صورة ظاهرية من التضامن العربى، نجحت إسرائيل فى استغلالها، بالإضافة إلى بعض التصريحات العربية وإظهار الدول العربية فى تضامنها هذا فى شكل الدول المعتدية التى تبغى سحق إسرائيل وإلقائها فى البحر، وبذلك تهيّأ الرأى العام العالمى - وخاصة الغربى - لقبول مزاعم، إسرائيل بحقها فى الدفاع عن النفس ورد العدوان قبل وقوعه.

ولقد دأب الزعماء العرب وأجهزة الإعلام على تأكيد القوة

العسكرية للعرب لأن: للعرب تفوقًا فى السلاح الذى تم شراؤه لهدف إزالة إسرائيل، وأن كفة العرب فى ميزان الطاقة البشرية وفى ميزان القدرة العسكرية هى الراجحة بدون شك، بقى أن تتخذ الحكومات العربية القرار باستعمال الطاقة البشرية والقدرة العسكرية هذه، لتصبح هى الراجحة أيضا. إن الاستهانة بقوة العدو قد فعلت فى هزيمة يونيو أكثر مما فعلته قوة العدو نفسها فما كان للعرب أن يستهينوا بقوة عدوهم لولا إسرافهم فى الثقة بأنفسهم إسرافًا بلغ حدّ الغرور وجعلهم غير قادرين حتى على مواجهة العدو بالغضب الذى يستحقه. فالحرب ذروة من ذرا الشعور الإنسانى الجماعى بالعداوة، ومن ثم كان من نتيجة الاستهانة انتكاسة العرب فى يونيو ١٩٦٧، لأن العرب لم يدركوا تحديات العصر، ولا الأطماع الأجنبية على اختلاف أنواعها أملًا فى إبقاء الوطن العربى على ما عليه من فرقة وتخلف طمعا فى استغلال ثرواته وإبقائه فى حالة من التبعية المستمرة، فإذا تعاظم استقلال البلد العربى، تكون الدسائس وأشكال التخريب السرية إلى حدّ وضع الانقلابات الداخلية أو الحرب الأهلية كما حدث فى لبنان. ولنؤكد ذلك إشارة ، دون تفصيل ، نرجع إلى الفترة التى سبقت حرب يونيو ١٩٦٧ لنرى تشابك الأحداث المحلية والعربية والدولية وتداخلها، فهناك محاولات إسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن فى عام ١٩٦٣، ثم تفاقم حرب اليمن التى لا يعرف الكثير أهميتها حتى الآن. وقيام

منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٥، وانتفاضة الضفة الغربية فى ١٩٦٦، والصدامات السورية الأردنية والصدامات السورية الإسرائيلية ١٩٦٧/٦٦. ومع هذا التراكم الكبير فى التناقضات المعقدة، وجدت منطقة الشرق الأوسط نفسها تجلس على كومة من الديناميت السياسى الجاهز للتفجير. ولقد جاءت شرارة التفجير سريعا عندما قامت إسرائيل بتشجيع ودعم أمريكيين بإشعال نار حرب الخامس من حزيران يونيو ١٩٦٧.

لكن الحق يقال إن الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧ لم تكن فقط نتيجة للمؤامرات الاستعمارية الخارجية، فقط بل ربما تكون وبالدرجة الأولى نتيجة التفكك والتسيب الذى أصاب الأمة العربية داخليا، ونتيجة للقهر والديكتاتورية التى تمارسها السلطات الحاكمة على شعوبها فى بعض الدول العربية، فمثلاً فى مصر انشغل عبد الناصر بمعالجة الأوضاع الداخلية ومنها تصفية هؤلاء الذين يعارضون التدخل المصرى فى اليمن. وفى الأردن انشغل النظام الأردنى بالقضاء على القوى الوطنية واعتقال قيادتها التى كانت تسعى لإيجاد جبهة وطنية تقدمية، وقامت انتفاضات شعبية كبيرة فى الضفتين الشرقية والغربية إثر الاعتداء على قرية السموع تندد بتخاذل السلطة، وعدم التزامها بتقرير السياسة العربية الدفاعية. ويندد المفكر قسطنطين زريق، فيقول:

«إن أولئك الذين ينتظرون أن تتحرر فلسطين بسرعة، أو أن يتم

محو آثار العدوان بعمل عسكرى من قبل حكم قام بانقلابين فى فترة أسبوعين فى إحدى الدول العربية (المقصود بذلك العراق) أو من قبل دولة سرحت ٤ آلاف ضابط خلال أربع سنوات (سوريا) أو من قبل دولة أخرى ظلّت تفاخر طيلة الوقت بأن لديها قوة فائقة لم تثبت جدارتها ساعة الامتحان (الجمهورية العربية المتحدة). إن الذين ينتظرون ذلك هم بلاشك أغبياء أو أنهم يخدعون أنفسهم لإيجاد وسيلة يهربون بها من الواقع والحقيقة».

وفى المغرب وبعد الدستور الجديد فى ١٩٧٢ ظلت عملية استبعاد الحرية والقانونية والدستورية والعدالة السياسية، لأن الحرية التى كان يحلم بها المواطنون بأن عهد الاستقلال سيحققها لهم، اختفت سواء فى مجال الرأى والفكر والكتابة أو فى مجال العمل والتنقل والاختلاط والتجمع والتمتع بالحقوق الضرورية للمواطنين كما يشير الدكتور سيد حامد النساج. وقد نبهت صحيفة العلم المغربية إلى ضرورة سماع الرأى الآخر والكفّ عن اضطهاد الحريات حيث تقول فى عددها رقم ٨١٠٣ الصادر بتاريخ ١٩٧٢/٩/٤:

«إن المشاكل التى يتخبط فيها المغرب لا يحلها اضطهاد الرأى، والحكومة التى تشغل نفسها بالاضطهاد عن حلّ المشاكل، إنما تتنكب السبيل القويمة لتزيد على المشاكل القائمة مشكلة أخرى هى كبت الرأى الوطنى، وهى بذلك تعطى الدليل فى الداخل والخارج على نموذج آخر من سياستها وهو اضطهاد الحريات العامة وعلى أنها

تخشى الرأى الوطنى الذى تجمهر ببعض مطالبه وببعض آرائه، وعلى أنها تودّ أن تبقى فى سياسة برهنت الأيام على أنها سياسة فاشلة فلتصمت الصحافة أو تتكلم فإن الرأى العام يستطيع أن يتكلم بما لا يستطيع منعه رقيب ولا مصادرة».

ويستمر الحال فى المغرب من قهر ومصادرة واعتقال، وحتى عام ١٩٧٥ كانت معظم الكتابات تنوّه بفساد الحكم اللاديمقراطى، وتطالب بصفة دائمة بضرورة الحرص على تثبيت دعائم الديمقراطية ضمانًا لحرية الفرد المغربى الذى عانى كثيرًا من القهر والاغتراب داخل إطار المجتمع الذى يعيش فيه، والجماعة التى يتعامل معها، بحيث لا تطغى حرية الفرد، على حرية الجماعة. وهذا ما تؤكده صحيفة **العلم** المغربية، حيث تقول:

والذين يأملون فى حكم غير ديمقراطى، أو فى حكم اعتباطى يمهد بعد نجاحه، لنظام ديمقراطى، إنما يسلكون بأصنافهم الثلاثة، سبيل مغامرة لن تحقق سلامة حكم ولا استقراره ولن تمنح الأمد الكافى لظهور نتائج ما قد يقوم به هذا الحكم اللا ديمقراطى من أعمال. آن الأوان إذن أن نفكر بنضج فى الأساس الذى يجب أن يقوم عليه الحكم فى المغرب. ولن يكون هذا الأساس إلّا الديمقراطية السليمة».

إننا نعيش فى عالم، شاعت فيه سياسات القهر والقتل، التى

تتبعها بعض الحكومات العربية، ففى بعض الدول التى تسودها أنظمة حكم، تدعى الشعبية وتمثيل الشعب، فى هذه الدول بالذات، طرأ جوٌّ من العزلة البعيدة بين الشعب والحكم. وبرغم أن ممارسة شئون الدولة فى البلدان العربية، كانت على الدوام وقفاً على فئة قليلة ، فلقد ظهر قدر من التطلع إلى ما يسمى بمشاركة الشعب، إلى حدٍّ ما، فى النشاطات السياسية المتعلقة بمرحلة الانتقال السياسى، ولكن نصيب هذا التطلع، كان خيبة أمل تامة. فالبيروقراطية العربية، فى النظامين الرأسمالى، والاشتراكى، خلقت طبقة انتهازية تبغى الخير لنفسها، وتتلون بمختلف الألوان، وتتحول بتحول الظروف. فإن كان الحكم ملكيًّا، تشكلت البيروقراطية على صورة حاشية تدفع وتمنع. وإن كان عسكريا، ظهرت فى هيئة ناصحين ومستشارين، وإن كان ديمقراطيا اشتراكيا، حولته إلى عقيدة مجمدة فى قوالب وشعارات تكون هى من سدنتها، همّها أن تعزل الحاكم عن الشعب، ومع هذا ، فلا تزال القضية الاجتماعية مطروحة بدرجة واضحة ولا يمكن تجاهلها، لأن معظم البلاد العربية ما تزال تعانى فى كثير من العلاقات الاجتماعية المتخلفة، ومن الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية، غير الإنسانية سواء بتأثير الطبقات الحاكمة التى ما تزال تضغط على قمة الهرم الاجتماعى، أو بتأثير بقايا نفوذ هذه الطبقات بعد عزلها من مراكز السيطرة السياسية أو بتأثير طبقات جديدة، ناشئة.

وتنتشر فى بلاد «العالم الثالث»[1] حيث الحكم الفردى هو القاعدة العامة التى لا توجد لها إلّا استثناءات قليلة، أسطورة الحاكم الذى لا يعرف، وفى أغلب الأحيان يروجها النظام الحاكم ذاته، أو المتعاطفون معه، والمستفيدون منه، كما أن الحاكم نفسه قد يلجأ إليها فى نهاية المطاف، حين لا يبقى فى الإمكان إخفاء فضائح ما، سياسية كانت أو مالية أو جرائم إنسانية أو تصرفات إرهابية، عندئذ، تعلو الأصوات التى تعمل على نفى التهمة عن الحاكم وتلصقها بالمحيطين به كمجموعة من الأشرار، لا يكتفون بارتكاب جرائمهم بل يخفونها عن الحاكم ويصورون الأحوال دائمًا بصورة وردية، وما داموا هم وحدهم الذين يستطيعون الوصول إلى الحاكم، فإن هذا الأخير يظل على غير علم بممارستهم التى تشوّه صورته أمام الناس دون قصد منه، كما يقول الدكتور فؤاد زكريا إذ تنتشر أسطورة الحاكم الذى لا يعرف عندما يضطر أنصار الحاكم الفرد، إلى الاعتراف بوجود تناقض صارخ فى تصرفاته. ويعجزون عن تفسير هذا التناقض فهو من جهة يبدو حاكمًا وطنيا صامدًا فى وجه الأعداء يتبع سياسة تستهدف مصالح الشعب وخاصة فئاته الكادحة. ولكنه من جهة أخرى يسجن بلا حساب، ويعتقل

---

(١) فى بلاد العالم الثالث، تكون سيادة ملامح البورجوازية الصغيرة هى الغالبة، وتتمثل فى التردد، والتقلب، ضيق الأفق، الهرب من الواقع.

بلا دليل، ويضرب بيد من حديد جميع معارضيه ولا يسمح لصوت بأن يرتفع إلاّ صوته وصوت حاشيته، وهو باختصار يفرض رؤيته دون أن يترك هذه الرؤى تأتى من القاعدة الشعبية وتنبع من حريتهم وقناعتهم.

وأحيانا يكون العكس، بأن تلصق كل الجرائم إلى الحاكم الفرد، أما الأعوان، فهم معذورون، لأن كل السلطات فى يد الحاكم الفرد. ويرى الدكتور/فؤاد زكريا أن الأسطورتين متناقضتان وقع فيهما شعبنا العربى، حيث يقول:

«ولكن المشكلة الحقيقية فى الأسطورتين لا تكمن فى تناقضهما فحسب، بل إنهما تمثلان وهمًا كبيرا وقعت فيه شعوبنا العربية، وما زالت معرضة للوقوع فيه، والأدهى من ذلك أن الأسطورتين أصبحتا تقدمان وكأنهما من طبائع الأشياء، ومن ضرورات السياسة، وترددان وكأنهما محاولة لتفسير ظواهر تبدو غير قابلة للتفسير على أى نحو آخر، وأعنى بها: كيف يكون الحاكم وطنيا وطاغية فى الوقت ذاته؟. وكيف يكون التابع فاضلاً، وشاهدًا على الظلم».

ولكن يجب العلم بأن الحاكم الصالح، الذى يخدعه رفاقه، أكذوبة كبرى لسبب بسيط، يتمثل فى أن الحاكم نفسه هو الذى يختار معاونيه وهو قادر على تغييرهم، ولولا أنه موافق على أفعالهم وعلى أسلوبهم فى التعامل، ما أبقاهم فى مناصبهم لحظة واحدة. ومعاونوه، إما أن يكونوا من طرازه، أو من طراز شبيه به والنظرة الفاحصة

للأمور تدلنا على أن الحاكم المتسلط يعرف كل شيء عن معاونيه، وعن انحرافاتهم وتجاوزاتهم، ولكنه يصمت لأنهم يخدمون أهدافه، أما إذا خالفوا أوامره فإن الملفات المحفوظة تخرج من الأدراج وتبدأ الفضائح، وهكذا فإن الحاكم هنا يعرف، ولكنه لا يستخدم معرفته لمنع الضرر عن الشعب، بل يوظفها من أجل إحكام سيطرته على معاونيه. ومن هنا تكون المصلحة الذاتية أقوى من مصلحة الشعب أو المجموع، وهنا يتحول الحاكم إلى طاغية، أقسى من الملوك، ويؤكد أرسطو هذا الرأي، فيقول:

«رسالة الملك الخاصة أن يسهر على أن أرباب الأملاك لا يصابون بأي ضرر في ثروتهم، ولا الشعب بأي إهانة لشرفه. أما الطاغية فعلى الضدّ... لم يك لينظر في الشئون العامة إلاّ إلى منفعته الشخصية. غرض الطاغية هو الاستمتاع، وغرض الملك هو الفضيلة. من أجل ذلك في معرض الطموح يفكر الطاغية على الخصوص في المال، وأما الملك فيفكر على الخصوص في الشرف، وحرس الملك يتألف من المواطنين، وحرس الطاغية من الأجانب».

ومن هنا، وعلى حسب قول أرسطو، نرى في بعض البلدان العربية حكامًا أقسى من الملوك والطغاة، وليس خافيًا أن بعضهم يستخدم حرسًا من الأجانب، فهم على حسب قول أرسطو، حكام طغاة. فمن المسلمين من أباح دم المسلمين، ورتب لهم في ساعات الشدّة وأيام المحنة، من المأجورين لإزهاق أرواحهم، ونسف

منشآتهم. والعجيب أن هذا القتل لم تسلم منه فئة دون أخرى، فعاشت الشعوب فى خوف من بطش حكامها فلم يخافوا على شىء، لأنهم لا يملكون أى شىء. والعجيب أن الاضطهاد والسجون شملت جماعات مختلفة المشارب، فالإخوان المسلمون عانوا منها، مثلما عانى منها الشيوعيون. فكان الفزع هدفًا لذاته. ولعلّ أوّل ما يمكن أن يلاحظ سياسيا، هو الفراغ الهائل لدى أجهزة الحكم العربية. فلقد وقع الحكم فى بعض الدول فى عزلة عن الجماهير الشعبية وأصبح يعيش وحده متقوقعًا فى واد والجماهير تئنّ وتجوع فى واد آخر.

فالنظام لا يفهم من الحكم إلّا التحكم والسيطرة والاستبداد، ويقصر إدراكه عن أن يفهم أن مسئولية الحكم تنبع من إتاحة الفرصة للشعب كى يحكم نفسه بنفسه. ويمكن أن نضرب مثالاً من الغرب الأقصى، حيث يعلن الدستور الجديد، الذى أعلن على الشعب فى مارس ١٩٧٢، تأكيدًا لهذا القول، فى الفصل التاسع والعشرين من الباب الثانى، كما أورده الدكتور سيد النساج:

إن الملك أمير المؤمنين، والممثل الأسمى للأمة ورمز وحدتها، وضامن دوام الدولة واستمرارها، وهو حامى حمى الدين والساهر على احترام الدستور، وله صيانة حقوق وحريات المواطنين، والجماعات والهيئات، وهو الضامن لاستقلال البلاد، وحوزة المملكة فى دائرة حدودها الحقة.

وكثيرًا ما تنشأ الحركات الاجتماعية العدوانية، نتيجة إحساس

المواطن بالاضطهاد والامتهان أو الهزيمة إزاء السلطة الغاشمة، وتشكل هذه المشاعر وغيرها من مشاعر الإحساس بالنقص لدى المواطن الخلفية لكثير من الحركات العدوانية، وقد تكون تربيتنا الاجتماعية، وعاداتنا فيها من الإعاقة لتقدمنا كأمة، أكثر مما قد تعوقها السياسة. فنحن العرب، وكشخصية قومية، لها من الصفات النفسية والاجتماعية والحضارية ما يتسم بالثبات النسبى فى بعض الصفات كالتواكل والسلبية وانعدام المبادرة، وهى سمات تكمن وراء العجز العربى الذى كشف عن نفسه على المستوى السياسى والعسكرى والاجتماعى فى معارك يونيو ١٩٦٧ وكتميز لشكوكها بالنسبة للقوميات الأخرى. ولنحاول، أن ندرس مكون هذه الشخصية القومية[١]، ولنعرف تأثيرها وردّ فعل النكسات عليها حتى يتسنى لنا دراسة إبداعاتها الدرامية السياسية، كانعكاس وكتعبير عن هذه الشخصية العربية فى الظروف المختلفة.

وبرغم أن موضوع الشخصية القومية ليس من الموضوعات التى يتفق حولها الباحثون، إلّا أن هناك شخصية عربية تعبّر عن أمة عربية واحدة، كما يرى السيد يس حيث يقول:

---

(١) يرى الدكتور/ فرج أحمد فرج، أنه عند دراسة الشخصية العربية، يجب أن نرفض العودة بها إلى النمط القبلى الرعوى الزراعى ويجب أيضا ألا نقفز إلى نموذج غريب مستورد مقطوع الصلة بتاريخها وتراثها.

«إن الشخصية العربية تقوم على دعامتين أساسيتين: نمط أساسى للإنتاج نما وتطور فى البلاد العربية كلها وفق مراحل متشابهة. وبناء فوقى واحد أبرز عناصره الخبرة التاريخية المشتركة، واللغة العربية والتراث الثقافى المشترك. وتتميز الشخصيات الإقليمية المختلفة فى الوطن العربى، بحكم تميز التكوين الاقتصادى الاجتماعى لكل منها.

بعبارة أخرى تفرد التاريخ الاجتماعى لكل شخصية إقليمية يكسبها سمات فريدة، لا توجد فى شخصيات إقليمية أخرى.

.....

فهناك سمات للشخصية المصرية، ليس ضروريا تواجدها فى الشخصية العراقية أو التونسية».

ومن هذا المنطلق يكون من الخطأ أن نعمم سمات الشخصية العربية، لأنها تختلف فيما بينها وفقًا لاختلاف نمط الإنتاج السائد فى كل بلد عربى على حدة، بالإضافة إلى أن الممارسات السياسية والاجتماعية والحضارية فى مجتمع ما، هى التى تحدّد فى التحليل النهائى نوعية الشخصية الإقليمية، بعبارة أخرى، تحدد الأيديولوجية والثقافة السياسية البارزة، بالإضافة إلى طرق التربية الاجتماعية وأشكال السلطة فى المجتمع ورد فعل الأفراد تجاهها، كل هذه العوامل من شأنها أن تساعد على تحديد السمات الأساسية للشخصية القومية. ويمكن القول، إن القيم التى يقوم عليها النظام السياسى فى الأمة العربية هى قيم سلفية مغلقة، لا مستقبلية منفتحة،

بمعنى أن التخطيط غير وارد فى حياتنا العربية وأننا كثيرًا ما نلجأ إلى الماضى عند النكسات، وأخيرًا يأتى حكمنا على الأشياء من خلال العرف والعادات والكتب المقدسة، فقيمنا فورية لا منهجية. فسريعًا ما نتحمس لبعض القضايا وسريعًا ما يفتر الحماس متكئين على الأحلام وليس على الواقع، وعليه فكثيرًا ما تتناقض تصرفاتنا مع أهدافنا، لأننا ننظر إلى الأمور بمنظار قريب وبشكل مطلق. لكن من المسلم به أن الهدف الوحدوى مهما انتابه من ذبذبات يظل إطارًا جوهريا من إطارات التنمية فى الوطن العربى،... ، وأن الوحدة – هدفا وأملا – تمثل حقيقة موضوعية تنعكس فى تراث تاريخى وسيكولوجى حتى فى الفكر والوجدان والتراث الحى والمصير المنشود، ولكن هذا لا يمنع التيار الحضارى الواحد الذى يمكن أن نصفه بكلمات قليلة، والذى يتمثل فى الاهتمام بالقضايا المصيرية الواحدة، وعلى رأسها مثلاً القضية الفلسطينية، ولكننا لا نريد أن يقتصر العمل المسرحى والفنى، خصوصًا المسرح السياسى العربى، على السياسة وحدها، لأن بناء المستقبل العربى لا يكون عن طريق السياسة وحدها، بل عن طريق بناء الإنسان الحضارى وفى رأس اهتماماته الشوق إلى الحرية والعدالة الاجتماعية ومحاربة الاستعمار ومنع الاغتراب الاقتصادى الذى يعيشه المواطن الكادح، وقبل كل ذلك النظر إلى المسألة الفلسطينية، بما يتناسب والشهامة العربية. ويجدر بنا الآن، أن نشير إلى موقف بعض الدول العربية، من القضية

الفلسطينية، فى فترة الانتكاسة العربية بعد يونيو ١٩٦٧.

ففى الأردن: فقد صرح الملك حسين، فى ١٩٦٦/١١/٢٥ أنه: بالنسبة لقضية الفدائيين فموقفنا نابع من مؤتمرات القمة العربية، وتعليمات القيادة الموحدة. فلو كان إرسال الفدائيين سياسة عربية، فلماذا لا ينطلقون من سيناء وغزة وسوريا.

أما مصر، فموقفها يتلخص، فى أنها رأت ضرورة الإعداد وحشد جهود الأمة العربية لخوض معركة مصيرية ضدّ إسرائيل، كذلك فقد أيدت مصر صيغة منظمة التحرير الفلسطينية بدرجة أكبر وأوضح، عن صيغة فتح البدائية.

أما سوريا، فقد أيدت منظمة فتح تأييدًا كاملاً، بل وزودتها بالمدد والعون المتنوع، وأيدتها إعلاميًا، بأن أذاعت بلاغاتها من إذاعة دمشق بشكل مستمر، ولا يمكن إخفاء أن سوريا كانت تتحرك فى تأييدها لفتح والعمل الفدائى من واقع مناداتها بشن حرب تحرير شعبية ضد إسرائيل. أما الجزائر، ومن خلال تجربتها الذاتية التى خاضتها فى حرب التحرير الجزائرية، فقد رأت أن الطريق، هو شنّ حرب العصابات، ومن هنا كان دعم الجزائر الكبير لفتح، والسماح لها بافتتاح مكتب فى الجزائر العاصمة.

أما لبنان، فلم يكن موقفها حماسيا بل إنها رأت أن أعمال فتح الفدائية سوف تخلق أزمات على الحدود فى أوقات غير مواتية للعمل العربى، وتنتزع المبادرة من الدول العربية.

وقد قامت لبنان بعمليات مطاردة وقمع ضدّ الفدائيين الفلسطينيين، ودورياتهم العائدة من الأرض المحتلة، بل وقامت بتعذيب بعض الفدائيين حتى الموت، مثل الفدائى الفلسطينى طلال كعوش.

وعلى هذا فلقد أثبت مسار القضية الفلسطينية فى الساحات العربية والدولية أن المساحة التى تفصل بين الرفض العربى للاعتراف بشرعية الصراع العربى الإسرائيلى، كصراع مصير ووجود، ورفض مواجهته، وبين القبول أو الوصاية العربية الدائمة سياسيا قد أتاح الفرصة، لقوى دولية كبيرة، للنفاذ إلى المنطقة وإحكام سيطرتها، ومن هنا خسر العرب وحدتهم وتضاربت الآراء حول العمل الفدائى، فلم تكن فلسطين وحدها كأرض مقسمة بين عرب ويهود، بل إن القضية الفلسطينية، قد قسمت، بين الأيديولوجيات العربية، فتميعت القضية الفلسطينية بواسطة العرب أنفسهم.

وثمة رأى يرى، أن على العرب العمل فى مجال القضية الفلسطينية، فى خطّين متوازيين أولاً: العودة إلى إحياء قضية تحرير فلسطين، والخطوة الأولى فى هذا السبيل تكون بتحرير ممثلى الشعب الفلسطينى من الأحضان والوصاية العربية، وبتحرير قضية التحرير من النفوذ العربى ذاته. وثانيًا: التعامل مع الصراع العربى الإسرائيلى تعاملاً واقعيًا لأن حرب يونيو التى «انتصرت فيها

إسرائيل»[1] انتصارًا كبيرًا، سيطرت فيه خلال ستة أيام، على أرض

(١) إنه من الأنسب أن نلخص الموقف العام للحكومة الإسرائيلية بالنسبة لمستقبل الأرض العربية المحتلة، حتى نهاية عام ١٩٦٧، بما يأتى:

(أ) رفض العودة إلى خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩، (أى رفض الانسحاب كليًا من الأراضى العربية المحتلة).

(ب) اشتراط إجراء مفاوضات صلح مع الدول العربية قبل أى انسحاب من «أراض» عربية محتلة.

(جـ) المطالبة «بحدود آمنة» مع الدول العربية تكون مواقعها فى مكان ما بين خطوط وقف إطلاق النار الحالية، وخطوط الهدنة عام ١٩٤٩.

(د) اعتبار مدينة القدس، غير قابلة للمفاوضة وضمّها - وقد ضمّت فعلاً - إلى الأرض العربية التى احتلت فى عام ١٩٤٨.

(هـ) اعتبار مرتفعات الجولان قسما من إسرائيل ووجوب ضمها إليها.

(و) المطالبة بأن تكون الحدود الآمنة الجنوبية لإسرائيل على بعد عدد معين من الكيلو مترات من قناة السويس بحيث يضم قطاع غزة وشرم الشيخ إلى إسرائيل ومرور سفنها فى قناة السويس.

(ز) ضم بعض أقسام الضفة الغربية لنهر الأردن إلى إسرائيل وتشجيع قيام كيان فلسطينى فى الأرض المتبقية، من الضفة، على أن يكون الكيان تحت سيطرة إسرائيل عسكريا وخارجيا.

(ح) عدم البحث فى أى حل لمشكلة اللاجئين العرب إلا فى نطاق مباحثات إقليمية ودولية وبعد اتفاق صلح.

(ط) عدم القبول بأى حل أو تسوية، من شأنها أن تؤثر بأى شكل من الأشكال على أمن وسلامة إسرائيل.

(ى) المحافظة على بناء إسرائيل دولة يهودية، وذلك بعد أن احتلت أراض يقيم بها سكان عرب كثيرون.

فلسطينية، وسورية ومصرية، تعادل خمسة أضعاف مساحة إسرائيل منذ عام ١٩٤٨، لم تؤدّ إلى حسم التناقض مع الفلسطينيين الذين فقدوا - نتيجة الحرب - كامل وطنهم، «وازداد عدد النازحين»[١] إلى (٤٠٠ ألف) نازح جديد، فلقد أدّى احتلال اليهود لأرض عربية جديدة، إلى تعزيز موقف الفلسطينيين فى التناقض العربى، وزاد الترابط العضوى بين عروبة وفلسطينية القضية، وتوسيع الدعم السورى للعمل الفدائى الفلسطينى، وشاركت جميع الدول العربية فى هذا الدعم وزاد التفاف الجماهير العربية حول القضية خصوصًا بعد نكسة يونيو ١٩٦٧.

وبرغم كل شىء، وبالنظر إلى الجدول التالى، وعلى أى مقياس لا يمكن أن يتحول قتل البشر ونفيهم من موطنهم وهدم بيوتهم وتركهم فى العراء فريسة للجوع والمرض فى الصحراء أو معسكرات الاعتقال أو معسكرات اللاجئين، فليس من الممكن طبقًا لأية وجهة نظر أن يتحول هذا كله إلى حقيقة، ربما من خلال وقفة عربية، تؤيد الانتفاضات الفلسطينية، وحقهم فى تقرير مصيرهم.

---

(١) عندما صدر وعد بلفور كان عدد العرب الذين يعيشون فى فلسطين يمثلون حوالى ٩٣٪ من مجموع السكان، والجدول الآتى يبين عدد السكان العرب الفلسطينيين النازحين فى البلاد العربية، والنسبة المئوية لكل بلد. من واقع المجموعة الإحصائية الفلسطينية ١٩٨١، المكتب المركزى للإحصاء، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، بدمشق، ص ٣٠.

مكان الإقامة	عدد السكان	النسبة المئوية
الضفة الغربية	٨٣٣,٠٠٠	١٨,٧
قطاع غزة	٤٥١,٤٠٠	١٠,١
فلسطين المحتلة قبل ١٩٦٧	٥٥٠,٨٠٠	١٢,٤
الأردن الضفة الشرقية	١,١٤٨,٣٣٤	٢٥,٩
سوريا	٢٢٢,٥٢٥	٥,٠
لبنان	٣٥٨,٢٠٧	٨,٠
الكويت	٢٩٩,٧١٠	٦,٧
العراق	٢٠,٦٠٤	,٥
ليبيا	٢٣,٧٦٩	,٦
مصر	٤٥,٦٠٥	١,٢
السعودية	١٣٦,٧٧٩	٣,٠
الإمارات العربية	٣٦,٥٠٤	,٨
قطر	٢٤,٢٣٣	,٥
باقي الدول العربية	٥٠,٧٠٦	١,١
أمريكا	١٠٤,٨٥٦	٢,٣
باقي دول العالم	١٤٠,١١٦	٣,١
المجمـــوع	٤,٤٤٧,١٣٨	٩٩,٩

Qeiknd.com

والحقيقة أننا لسنا بصدد الحديث التفصيلى عن مأساة فلسطين. فهذا دور رجال السياسة، ولم أدّع أننى واحد منهم، لكن وجب الإشارة إلى الانتفاضات العربية الفلسطينية، والتى تحمّل ثمنها الفلسطينيون وحدهم، مثل انتفاضة حريق المسجد الأقصى، فى أغسطس ١٩٦٩، ومظاهرات تأييد العمل الفدائى أثناء صدامات ١٩٧٠ – ١٩٧٣ فى الأردن ولبنان وانتفاضات يوم الأرض المتكررة سنويا، منذ عام ١٩٧٥، وإن كانت هذه الانتفاضات الفلسطينية موجهة أساسًا، ضدّ الاحتلال الصهيونى للأرض العربية، فثمة انتفاضات بل مذابح عربية بين الفلسطينيين، والأردنيين فى صيف وخريف عام ١٩٧٠، المسماة «بأيلول الأسود» حيث وقعت اشتباكات منذ شهر يونيو فى شمال عمان بين جماعة الفدائيين المنتمين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وقوات الصاعقة، ثم امتدت إلى العاصمة حيث استمرت إلى أن وافق الملك حسين، على قبول طلبات الفدائيين، ولكن سرعان ما عادت الفتنة إلى الانطلاق، وعادت الاشتباكات والمشاكل، وأوفدت جامعة الدول العربية لجنة رباعية، لإجراء مباحثات مع قادة المقاومة والملك حسين. وانتهت المفاوضات بتوقيع اتفاق بين المقاومة والملك، غير أن الاشتباكات عادت مرة أخرى وأغلقت الموانى والمطارات، وتحرك الأسطول السادس فى البحر الأبيض، وأرسل الملوك والرؤساء العرب المجتمعون فى القاهرة، لبحث المأساة وفدًا، برئاسة الرئيس جعفر نميرى، وتوصل

الملوك والرؤساء إلى اتفاق بين حكومة الأردن والمقاومة عرف باسم «اتفاق القاهرة» ولكن لم يستمر الاتفاق طويلاً، فسرعان ما تفاقمت الأحداث بين الطرفين وانتهى، بالتخلص من عناصر المقاومة الذين كانو يتمركزون فى الأردن. وقد ترتب على هذا انسحاب القوات العراقية المتمركزة فى الأردن، مؤدية بذلك إلى انهيار الجبهة الشرقية.

ويبدو أن الواقع العربى، واقع مبنى على الخلاف، لا الاتفاق، فثمة خلاف عربى، حول خطط العمل الفدائى، وثمة خلاف عربى حول موقفهم من القضية الفلسطينية، لانتماء بعض الدول العربية إلى معسكرات متنافسة، وثمة خلاف عربى بين العرب أنفسهم والفلسطينيين. ليس هذا فقط، بل ثمة خلافات بين منظمات المقاومة الفلسطينية ذاتها، فلقد جاءت صراعاتها، وفقا لأيديولوجياتها فى هذه الفترة، لتجعل المناخ ملائمًا تمامًا لإسرائيل كى تقوم باعتداءاتها المتكررة، فالمنظمات الفلسطينية صورة عن الأحزاب العربية، وفى قياداتها من يسوس القاعدة، بنفس الطريقة التى يسوس بها بعض الحكام العرب أمتهم.

غير أن موت عبد الناصر جاء كحدث عميق فى سبتمبر ١٩٧٠، وأدّى إلى ردود فعل رهيبة وقاسية فى العالم العربى خاصة، فقد كان عبد الناصر دون شك «رمز» تحويل خطير فى الصراع العربى الإسرائيلى. فالذين أحبّوا عبد الناصر والذين كرهوه على السواء

- لن يجدوا مفرًّا- وهم يؤرخون ويحللون أبعاد المشكلة الفلسطينية، من أن تنقسم المشكلة قسمة حاسمة إلى مرحلتين: قبل عبد الناصر، وبعد عبد الناصر.

أما عن مواقف الدول الكبرى بالنسبة للقضية الفلسطينية، فالملاحظ أن تاريخ هذه الفترة من مشكلة فلسطين، هو تاريخ معقّد أشدّ التعقيد، حيث الطابع المميز لها فى العلاقات الدولية، هو الخلافات المستمرة، فى صفوف العرب، وحالات التحول المتكررة من جانب البريطانيين والأمريكيين، ثم تأتى الصورةالسوفيتية لتجعل تاريخ هذه الفترة من أعقد الأمور، حيث لا توجد دراسة جادة تعرضت لموقف السوفيت من مشكلة فلسطين فى هذه الفترة إلّا وأحجمت عن تقديم علمى للصورة السوفيتية، بالإضافة إلى تزايد «هجرة اليهود»[1] السوفيت إلى الوطن المحتل.

ولم يحدث فى أى مرحلة، أن انتقلت العلاقات الأمريكية السوفيتية إلى حدّ الصراع الدولى حول فلسطين، وكانت إحدى

---

(١) ينص قانون العودة الصادر فى ٥ يوليو سنة ١٩٥٠، وهو يعطى لكل يهودى فى العالم حق الهجرة إلى (إسرائيل) بلا قيد أو شرط، بل إنه ينص فى المذكرات التفسيرية الصادرة معه على أن هذه الهجرة ليست حقا، وإنما هى واجب على اليهود، ويطابق هذا القانون ما ورد فى إعلان قيام الدولة، بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٨، الذى تسميه إسرائيل «وثيقة إعلان الاستقلال» الذى ينصّ على أن «الدولة الإسرائيلية ستفتح أبوابها لهجرة اليهود المنتشرين فى كافة أنحاء العالم».

أدوات المنافسة هى النفوذ فى محيط قضية فلسطين وليس داخل القضية ذاتها. ولذلك يلاحظ أن القطبين الدوليين اشترطا بشكل أو بآخر على الدول العربية أعضاء هذا المحيط أن لا تفهم إحداها تأييد أى من القطبين على أنه تأييد لتحرير فلسطين، ولكن يمكن استخدامه فى إطار تحريك القضية الفلسطينية. معنى هذا أن قضية فلسطين، لم تكن أبدًا محل صراع بين القوتين العظميين، ولكن ما كان مطروحًا وسيظل على ما أعتقد هو التنافس داخل إطار «القضية الفلسطينية» فى المجالين العربى والدولى.

ولكن لا يفوتنا أنه من المؤكد أن المصالح الغربية والأمريكية فى الشرق الأوسط، وهى مصالح هائلة، تتركز حول ثروات البترول العربى والاستثمارات الاقتصادية فى إسرائيل، تواجه أكبر الأخطار من جراء نموّ قوى التحرر الوطنى، سواء فى فلسطين، أو الأمة العربية بشكل عام، فأصبحت حركة التحرر العربى، خصوصًا بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ معنية أساسًا بقضايا التحرر القومى وظهرت النزعة القومية كنوع من الوعى القومى يتركز فى التفوق والهيبة والقوة والسيطرة، فقد كان من الطبيعى أن تتراجع الشئون المحلية وأن تحتل المرتبة الدنيا، ويمكن سحب هذا الواقع على الأقطار العربية معظمها، ولكن بدرجات متفاوتة.. ويبدو ذلك واضحًا فى المؤتمرات والتوصيات التى اتخذتها مختلف الهيئات والتنظيمات فى الوطن العربى خلال مؤتمراتها الدورية والسنوية، إذ أن جميع

التوصيات والمقررات ذات سمات شمولية عامة تطمح إلى التحقق على المستوى القومى.

وفجأة وبعد طول انتظار انطلقت شرارة العبور واكتسح الجيش المصرى العظيم الحصون والاستحكامات التى أقامتها التكنولوجيا الإسرائيلية[1]، وفرّ وأسر وقتل الكثير من الإسرائيليين التكنولوجيين العلميين والعصريين وانقلب ميزان القوى، وتغيرت نظرة الرأى العام العالمى وتراجع من تندّر بسلبيات العرب وضعف الجندى المصرى وأصبح الجميع يتغنّى بإيجابيات الشخصية المصرية وثرائها وجسارتها وأن ما حققه فى أكتوبر هو سمة تميزه منذ أقدم العصور؛ لأننا أصحاب حق، ويؤكد الرئيس السادات بقوله:

«إن حربنا لم تكن من أجل العدوان ولكن ضدّ العدوان، ولم نكن فى حربنا خارجين على القيم ولا القوانين التى ارتضاها مجتمع الدول لنفسه وسجلها فى ميثاق الأمم المتحدة الذى كتبته الشعوب الحرّة بدمائها بعد انتصارها على الفاشية والنازية، بل لعلنا أن نقول إن حربنا شرارة للحرب الإنسانية ضد الفاشية والنازية. ذلك أن

---

(١) لقد تغير الوضع بعد عبور أكتوبر فكثيرًا ما تفاخرت إسرائيل بتقدمها التكنولوجى الهائل، وأن المجابهة تمت فى يونيو بين عدو متقدم تكنولوجيا يمتلك تنظيما اجتماعيا يتسم بالعقلانية والكفاءة سمح له بحشد موارده وتعبئة طاقاته إلى أقصى درجة ممكنة، وبين الجانب العربى الذى ظلّ يمثل نمط الأقطار المتخلفة التى لم تساير موجات التحديث ولا إنجازات العلم والتكنولوجيا إلّا بصورة جزئية وبقدر محدود.

الصهيونية بدعاوها العنصرية وبمنطق التوسع والبطش ليست إلاّ تكرارًا هزيلاً للفاشية والنازية يثير الازدراء ولا يثير الخوف، ويبعث على الاحتقار أكثر مما يبعث على الكراهية».

ويمكن القول إن ما حدث فى يونيو ١٩٦٧. وما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣ من انتصار، أدّى إلى العديد من التساؤلات حول العالم العربى ومكوّن الشخصية العربية وإعادة النظر فى تركيبها ودراسة فاعلية الشخصية القومية العربية التى حققت نصر أكتوبر على المستوى العسكرى والسياسى والتكنولوجى.

ونرى ضرورة التوقف عند نهاية السبعينات لأنها الفترة التى تنتهى عندها الدراسة تاريخيا وما أفرزته هذه الفترة الحضارية منذ نكسة يونيو ١٩٦٧ حتى نهاية السبعينات من تراكمات وتناقضات عربية داخلية وخارجية أدّت إلى نكسة يونيو مع طرح أسباب النكسة ونتائجها من وجهات النظر المختلفة، وأثر العامل الدينى وتضارب الآراء حول دور الدين فى واقعنا الحضارى العربى، ثم دراسة التفسخ العربى والفوقة بين الدول العربية خضوعًا لأيديولوجياتها وارتباطاتها الخارجية ومصالحها الذاتية، ثم دراسة الجانب العسكرى وأثره فى هزيمة يونيو، ودور أجهزة الإعلام فى تضخيم صورة الذات العربية، مع دراسة الجوانب العلمية والتكنولوجية وأثرهما فى الحرب والنصر وأثر التخلف العلمى التكنولوجى العربى، ثم التركيز على تحليل مكون الشخصية العربية

وسماتها، ثم دراسة موقف الأمة العربية من القضية الفلسطينية مع دراسة موقف الفلسطينيين أنفسهم بمنظماتهم العديدة والمختلفة نحو القضية. ثم يأتى موت عبد الناصر ليكون وقع الصدمة قاسيًا على العالم العربى. بعدها يحدث العبور العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣ ثم معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى مارس ١٩٧٩ مع ما يصاحب كل ذلك من علاقة بين السلطة وأجهزة الحكم فى الوطن العربى وشعوبها، وهو ما نطلق عليه قضية الديمقراطية أو أزمة الحرية فى الوطن العربى، ممثلة فى دور الكتّاب والمثقفين فى هذا الواقع سلبًا وإيجابًا ودورهم فى التعبير عن هذا الواقع العربى بكل ملابساته، منه استمدوا موضوعاتهم المسرحية وأشكالهم الفنية؛ لأننا فى قراءتنا لأدبهم لابدّ وأن نضع فى تصورنا النظم الموجودة والعلاقات القائمة والجو الثقافى السائد والصراعات المتطاحنة ولون الفكر المسيطر وقضية الحرية وموقف الرقابة وما إلى ذلك مما يكون البيئة أو المحيط أو ما نسميه حركة المجتمع على المستوى الواقعى، فى السياسة والاقتصاد وفى تركيبة الطبقات الاجتماعية.

وسندرس فى الفصل التالى، أثر النكسة ومتناقضات الواقع العربى فى كتّاب المسرح السياسى الذين حاولوا تفسير أسباب الهزيمة العربية من خلال عملية النقد الذاتى والتى كانت أشبه بالمحاكمات القومية. والمفكر أو رجل المسرح مدعو لأن يفكر فى مشاكل وطنه ولا يعفيه من هذا التفكير، أنه ليس سياسيا. ومن هذا

كانت ضرورة دراسة المسرح السياسى وأشكاله المختلفة فى الوطن العربى من نكسة يونيو ١٩٦٧ حتى نهاية السبعينات من منطلق أن الكلمة والبارود ملتحمان التحامًا قويًا فى الأزمات والنكسات، وأن المسرح السياسى إفراز لواقع حضارى.

obeikandl.com